مصغراً ومحركا للتاريخ . وقد اشار الى ان القضية الفلسطينية كانت محور اهتمامه منذ البداية وكان في بواكيره الكتابية يرمز لها ولا يتحدث عنها بالتفصيل او بالمباشرة ، الى ان نشر رواية « رجال في الشمس » حيث وجد في اطار القضية الفلسطينية الرمز والمسرح الانساني للبطل الذي يمثل الانسان في صراعه ضد قوى الشر والطغيان في كل مكان وان كان فلسطينيا ، جغرافيا . والانسان الفلسطيني ، بالنسبة له ، رمز للانسان وصراعه من اجل ان يكون سيد مصيره .

صحيح ان ابطال كنفاني مهزومون وصحيح ان رواياته تنتهي بهزيمة البطل . الا انها هزيمة تحمل في ثناياها بذرة المستقبل . ويشخص الكاتب سبب الهزيمة افتقار ابطاله الى الوعي ويشير الى ان الغضب وحده لا يكفي للانتصار ولا بد من اقتران الوعي بالغضب .

واذا كان الفلسطيني المغترب بالاكراه لا يستطيع العودة ، ابديا ، وجماعيا في الوقت الحاضر ، الى ارضه فلم لا يعود أفرادا . وهذا ما يفعله كل من بطلي الرواية « عائد الى حيفا » وزوجته. حيث يعبران الحدود ويواصلان طريقهما من رام الله الى بيتهما القديم في حيفا ، البيت الذي كانا يسكنانه قبل التهجير . وكانا طوال الطريق يفكران ويسترجعان الماضي فنعرف بأنهما كانا آنذاك قد ضيعا طفلا لهما وعمره عدة شهور وان اسمه خلدون . بعد ان يصلا الى بيتهما يجدان انه لم يتغير الى حد كبير وان عائلة يهودية ، بولونية الاصل ، تسكن فيه بعد ان قبلت بتبني طفل مجهول الابوين كشرط للسماح لها بسكناه .

بعد انتظار حافل بالتوتر وحديث لا يقل توترا يدخل رجل شاب يرتدي بدلة عسكرية اسرائيلية . الا انه يرفض فكرة العودة الى والديه الحقيقيين ويتمسك بيهوديته .

تثير الرواية قضية على جانب كبير من الاهمية وهي « عقدة الذنب » التي يشعر بها الاب لانه ترك وليده الصغير وهاجر بدون ان يعلم عن مصيره شيئا . واهمية موضوع « عقدة الذنب » تكمن في أن بالامكان تعميمه واعتباره حالة عامة بين الفلسطينيين العرب . الا يشعر الفلسطيني بتأنيب الضمير لانه هجر وطنه مكرها ؟ وما شعور بطلي كنفاني به نتيجة هجر خلدون الصغير الا نموذجا مصغرا ومثالا خاصا على حالة عامة ؟

بعد هذا « الجرد » السريع لاهم الروايات الفلسطينية(١١) من خلال أبرز اقطابها لا بد ان نشير الى ان الرواية الفلسطينية ما زالت ملحة ونابضة في حضورها وحيويتها . انها لم تتحول بعد الى تاريخ ، وان كان العديد منها سيتخذ طريقه الى حيث يصبح من كلاسيكيات الادب العربي وقممه البارزة . وعلينا ان لا نسمح للقضية أن تنام على رفوف التاريخ . لان بشرية المستقبل ستديننا . وعلينا ان لا نسمح لهذا ابدا . ولا يمكن ان يبرر ما نسميه « الحتمية التاريخية » التخلي و « ترك الحبل على الغارب » . فما من حتمية اكبر من اصرار الانسان . ان الانسان هو الذي يصنع التاريخ . وليس العكس . ولا بأس بأن تكون الممارسة اليومية في سبيل الوعي الهادف مقرونة بالابداع الادبي أو الفني . ولتصبح الرواية العربية شاهدا جديرا على القضية الفلسطينية ولتصور عيوب المجتمع العربي التى أدت الى اغتصاب فلسطين .

واذا كان الكتاب العرب قد ساهموا في ازاحة بعض ما تجمع من طين على الوجدان العربي وكتبوا روايات حزيرانية عديدة فلا بأس من ان نتوقع رواية « أيلولية » ، رواية واحدة فقط ، علها تكون الشهادة الكاملة على بطولة المقاومة واقدامها ومن ثم اندحارها البطولي في ايلول الاردني . ولا بأس من ان نتوقع مقدم ذلك اليوم الذي يشق الروائي الفلسطيني فيه طريقه الى قلوب القراء على جانبي الاطلسي وحتى بالاستفادة من اساليب الكتاب المتصهينين امثال أرثر كوستلر . ولا بأس من أن ننتظر كاتبا عربيا